

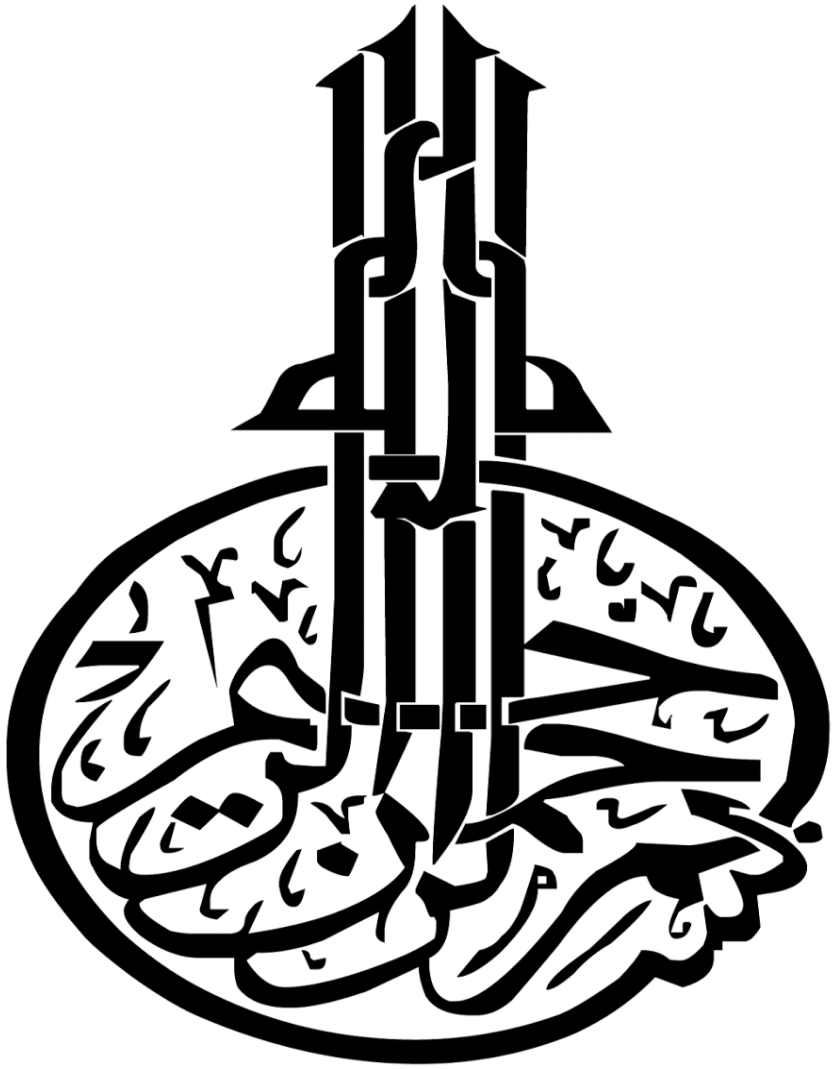
**صور من وقوع " ما " النافية
في جواب القسم في القرآن الكريم
دراسة بلاغية**

اعداد

دكتور/ عبد الله محمد سليمان حسيني
أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية اللغة العربية بالزقازيق
وكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد
بالمملكة العربية السعودية

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م





صور من وقوع "ما" النافية في جواب القسم في القرآن الكريم "دراسة بلاغية"

عبد الله محمد سليمان حسيني

قسم: البلاغة والنقد - كلية اللغة العربية بالزقازيق وكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني:

drabdalla105@gmail.com

ملخص البحث:

من الأنماط التي أثارت انتباه العلماء ولفتت أنظارهم إليها؛ كثرة وقوع "ما" النافية في صدر جواب القسم في القرآن الكريم كثرة لافتة، دون غيرها من أدوات النفي الأخرى، ويحاول هذا البحث الوقوف على هذا النمط الأسلوبي في كتاب الله - تعالى - للتعرف على طريقة القرآن في توظيف هذه الطاقات الكامنة في اللغة لتلبية مقاصد القرآن الكريم توظيفاً يقوم على مراعاة البعد الديني، وتحقيق الغرض المقصود، والوفاء بالمعنى المراد، وقد انتهى هذا البحث إلى عدة نتائج منها: تنوع صور جواب القسم الذي دخلت فيه "ما" النافية، فجاء في صورة الاسمية، وفي صورة الفعلية، وهذا ما ترتب عليه تنوع في الإيحاء، وثراء في الدلالة، كما أن وقوع "ما" في صدر جملة جواب القسم يحقق نوعاً من تناغي الخصوصيات وتناغمها في بناء التركيب، خصوصية "ما" النافية، وخصوصية القسم، فكلاهما يضيف على المعنى تقريراً وتوكيداً، وقد يتعانق مع "ما" النافية في توكيد الكلام وسائل وأدوات أخرى؛ لأنها جاءت في مقامات حافلة بمعاني الإنكار والرفض، كمقامات الرد وإبطال مزاعم الآخرين، ثم إن "ما" النافية قد تكررت في كثير من مواضعها في جواب القسم، وذلك عن طريق العطف المقتضي التشريك في الحكم، وهو ما

يضيف على المعنى أبعاداً أخرى من الوكادة والتقريب والتشبيث والتمكين؛ لأنه توكيد للكلام على توكيد.

الكلمات المفتاحية: صور، ما، النافية، جواب، القسم، القرآن، دراسة، بلاغية.



Images of the occurrence of the negating particle "ma" in the answer to the oath in the Holy Quran: "A rhetorical study"

Abdullah Muhammad Suleiman Hosseini

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language in Zagazig, Al-Azhar University, Egypt

Department of Rhetoric and Criticism, College of Arts and Human Sciences, King Khalid University, Saudi Arabia.

E-mail: drabdalla105@gmail.com

Abstract:

One of the patterns that has attracted the attention of scholars and drawn their attention is the frequent occurrence of the negative particle "ma" at the beginning of the answer to the oath in the Holy Quran. This frequency is striking, unlike other negation tools. This research attempts to address this stylistic pattern in the Book of God - the Exalted - to learn about the way the Quran employs these latent energies in language to meet the purposes of the Quran by employing a method that takes into account the religious dimension, achieves the intended purpose, and fulfills the desired meaning. The research concluded with several results, including: The variety of forms of the answer to the oath in which the negative particle "ma" entered. It came in the form of a noun, and in the form of a verb. This resulted in a variety of gestures and richness in connotations. The occurrence of "ma" at the beginning of the sentence of the answer to the oath achieves a kind of interaction and harmony between similarities in the construction of the structure, the advantage of the negative particle "ma", and the advantage of the oath, as both of them give the meaning a report, clarity and confirmation. Other means and tools may be intertwined with the negative particle "ma" in confirming the speech, because it came in positions full of meanings of denial and rejection,

such as positions of response and invalidating the claims of others. In addition, the negative particle "ma" has been repeated in many positions in the answer to the oath, and this is through the conjunction that requires sharing in the judgment, which gives the meaning other dimensions of reinforcement, affirmation, confirmation, and empowerment; ; because it is an affirmation of speech on affirmation.

Keywords: Images- Negative- particle "ma"- the Answer to the Oath-Quran- Study- Rhetoric.



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين. وبعد:



فإن القرآن الكريم حافل بكثير من الأنماط الأسلوبية والدلالات التركيبية التي كانت محط اهتمام الدارسين قديماً وحديثاً، ومحوراً لجهودهم الدؤوبة في استنباط أسرار الكتاب العزيز، والوقوف على شيء من دقائقه ولطائفه.

وكان من هذه الأنماط التي أثارت انتباه العلماء ولفتت أنظارهم إليها؛ كثرة وقوع "ما" النافية في صدر جواب القسم في القرآن الكريم كثرة لافتة، دون غيرها من أدوات النفي الأخرى.

فقد جاءت على صور شتى وأنماط مختلفة، فدخلت على الجملة الاسمية والفعلية الواقعتين جواباً، وذلك في تسعة مواضع من القرآن الكريم، وذلك على النحو الذي سوف تسعه خطة الدراسة وفصول البحث، تفصيلاً وتحليلاً.

وهذا ما حدا بي إلى اختيار هذا الموضوع الذي جاء بعنوان: "صور من وقوع (ما) النافية في جواب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية"؛ للوقوف على هذا النمط الأسلوبي في كتاب الله - تعالى - واستكناه بعض أسراره ودقائقه، والوقوف على شيء من خبىء غوامضه، والتعرف على طريقة القرآن في توظيف هذه الطاقات الكامنة في اللغة لتلبية مقاصد القرآن الكريم توظيفاً يقوم على مراعاة البعد الديني، وتحقيق الغرض المقصود، والوفاء بالمعنى المراد.

أهداف البحث؛

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على استكناه شيء من الأسرار البلاغية والدقائق التعبيرية في وقوع "ما" النافية - دون غيرها من أدوات النفي الأخرى- في جواب القسم في القرآن الكريم.

على أن هذه الصور يكون أسلوب القسم فيها متماسكاً، تمتد خلال سدها ولحمته خيوط التناسب، حتى يبدو محكم النسيج؛ مما يجعل صورة معناه تقع في سمع المخاطب وروعه وقلبه، كالكل المجتمع، الذي تتداخل لبناته وتماسك، وفي ذلك من التأثير والإمتاع والإقناع ما لا يخفى.

مشكلات البحث؛

ومشكلات البحث يمكن إجمالها في عدة تساؤلات بحثية على النحو الآتي:

- هل التناسب بين القسم وجوابه يؤكد على فكرة تماسك بنية النظم القرآني؟

- ما أسباب تعدد صور جواب القسم الذي دخلت فيه "ما" النافية؟

- لماذا تنوع المقسم به مع صور وقوع "ما" النافية في جواب القسم؟ وهل هذا باعتبار تنوع المقسم عليه واعتبار ما له من أهمية؟

- هل يتعاقب مع "ما" النافية في توكيد الكلام وسائل وأدوات أخرى؟

- ما أبرز حروف العطف التي لها حضور قوي في الربط بين الأحداث؛ لتحكي سرعتها وتواليها؟

- هل الحوار هو الكاشف عن الأحداث والمصعد لها؟

الدراسات السابقة:

وأما عن الدراسات السابقة التي لها صلة بعنوان هذا البحث، فقد وجدت بحثين يتناولان شيئاً من بلاغة أسلوب القسم في القرآن الكريم.

أما أولهما فكان بعنوان: "أسلوب القسم في القرآن الكريم دراسة بلاغية" - رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية - جامعة أم القرى، للباحث: علي بن محمد بن عبد المحسن الحارثي.

وللباحث جهد كبير في رسالته، إلا أنه لم يفرد عنواناً للحديث عن وقوع "ما" النافية في جواب القسم، ولم يتناول الأسرار البلاغية والنكات البيانية لمثل هذه المواضيع في أثناء دراسته لأسلوب القسم؛ حيث قسم الباحث رسالته إلى باين: الباب الأول جعله دراسة نظرية لمفهوم القسم وعناصره في اللغة والقرآن، واختص الباب الثاني للقسم بأسماء الله تعالى وصفاته، وضمن الباب الثالث القسم بأسماء القرآن الكريم، ثم الباب الرابع القسم بأسماء المخلوقات، ويحمد للباحث أن أتبع بحثه بجدول إحصائي لمواضع القسم في القرآن الكريم.

وأما البحث الآخر فعنوانه: "أسلوب القسم الظاهر في القرآن الكريم: بلاغته وأغراضه"، للدكتور سامي عطا حسن، جامعة آل البيت - المملكة الأردنية الهاشمية، ولم ألتق مع هذا البحث لا في الخطة التي اختطها الباحث لنفسه، ولا في المواضيع التي اختارها لدراسته؛ حيث قسم الباحث دراسته إلى خمسة مباحث، جعل المبحث الأول للأصل الاشتقاقي لألفاظ القسم، وبين في المبحث الثاني أركان القسم، وحقق في المبحث الثالث القول في المقسم به المبدوء بأداة

النفي، وأما في المبحث الرابع فقد بين أنواع القسم الظاهر في القرآن الكريم، ووضح في المبحث الخامس القسم القرآني، وأهدافه، ثم بين في المبحث السادس الأمور المقسم عليها، واختتم ببيان بلاغة القسم القرآني في المبحث السابع.

خطة البحث:

أما الخطة التي تناولها البحث بالدراسة والتحليل، فانتظمت في مقدمة، وتمهيد، ومبحثين مترابطين ومنسجمين، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس تفصيلي لموضوعات البحث.

المبحث الأول: صور من دخول "ما" النافية على الجواب الاسمي، وانتظم هذا المبحث في مطلبين:

المطلب الأول: صور من تقديم المسند إليه على المسند في جواب القسم الاسمي.

المطلب الثاني: صور من تقديم المسند على المسند إليه في جواب القسم الاسمي.

المبحث الثاني: صور من دخول "ما" النافية على جواب القسم الفعلي، وانتظم هذا المبحث في خمسة مطالب:

المطلب الأول: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الكون.

المطلب الثاني: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من القول.

المطلب الثالث: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من المجيء.

المطلب الرابع: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الضلال.

المطلب الخامس: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من التوديع.

الخاتمة: ضمنتها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

ثبت المصادر والمراجع: أودعته أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها وأفدت منها في هذا البحث.

الفهرس التفصيلي للموضوعات التي عالجها البحث.

وأما عن المنهج الذي اتبعته فهو المنهج الاستقرائي، الذي يقوم على حصر الظاهرة المدروسة، ويعكف على تقسيمها وتبويبها، ثم يقوم بتحليلها في سياقاتها ومقاماتها من النظم القرآني تحليلًا بلاغيًا يقوم على الكشف عن شيء من أسرارها وأغوارها، واستخراج ما وسعه من مكنون دررها وجواهرها؛ وبيان مدى مواءمتها - في سياقاتها - للمعنى والغرض، ووفائها لحاجة الموقف والمقام.

وأخيرًا فإذا وفقت إلى ما أهدف إليه فله - وحده - المنة والفضل، وإن تكن الأخرى فحسبي أني بذلت الجهد صادقًا محتسبًا، والله أسأل التوفيق والسداد، والعصمة من الزلل، فهو - سبحانه - الهادي إلى سواء السبيل.



التمهيد

"ما" النافية وعملها عند أهل اللغة

المتتبع لكتب اللغة وما أفاضوا به في الحديث عن ذلك الحرف يجد أن بعض العرب - كالحجازيين - يعملها، وبعض آخر - كبنى تميم - يهملها، فأهل الحجاز يشبهونها بـ "ليس" ويرفعون بها الاسم، وينصبون بها الخبر كما يفعل بـ "ليس"، ومعناها عند الفريقين كليهما: نفي المعنى في الزمن الحالي عند الإطلاق. تقول: ما صاحب الحق مغلوباً، أو ما صاحب الحق مغلوبٌ، بالإعمال أو الإهمال.

وإعمال "ما" النافية هو الأشهر، فبلغتهم جاء التنزيل، قال الله تعالى: ﴿ مَا هَذَا بِشَرًّا ﴾ [يوسف: ٣١]، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٢]، وتحدث بها أكثر العرب - أيضاً، على أنه يجوز الأخذ بلغة بني تميم، وهي لغة صحيحة، كما لا يخفى.

واشترط اللغويون لإعمال "ما" النافية خمسة شروط مجتمعة، ذكروها بإسهاب موضح وتفصيل مهم في كتبهم المطولة.^(١) وسواء أكانت "ما" عاملة أم مهملة فلها الصدارة في جملتها، بشرط دلالتها على النفي.^(٢)

(١) - يراجع: شرح مفصل الزمخشري لابن يعيش: ١ / ٢٦٨، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام: ٣٩٩، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر- دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م، وشرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، للشيخ: خالد بن عبد الله الأزهرى: ١ / ٢٦١ وما بعدها، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) - يراجع: حاشية الصبان على شرح الأشموني في باب ظن وأخواتها عند الكلام على الأدوات التي يقع بها التعليق، لصدارتها: ٢ / ٤١، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

بين "ما" و"ليس":

تعمل "ما" عمل ليس عند الحجازيين، كما سبق تفصيله وبيانه، وهناك أوجه اتفاق بين "ما" وبين "ليس"، ومن ذلك أن الأداة تدخلان على المبتدأ والخبر، إلا أن "ما" غير مختصة بالدخول على الجمل الاسمية، وكلتا الأداة لنفي الحال، ويزيد من هذه المشابهة بينهما دخول الباء في خبر "ما" كما تدخل في خبر ليس^(١).

فروق دقيقة بين الأداة:

والمتمامل لمواضع استعمال "ليس" و"ما" يجد أن معنى النفي المستفاد منهما ليس واحداً، مع أنها لنفي الحال عند الإطلاق، فالنفي بـ"ما" أقوى وأكد من النفي بـ"ليس"، ويؤيد ذلك عدة أمور:

منها أن العرب قد استعملت ليس استعمال الأفعال، فالجمل المصدرة بـ"ليس" جمل فعلية، والجمل المنفية بـ"ما" اسمية، ومعلوم أن التعبير بالجمل الاسمية أثبت وأكد من التعبير بقسيمتها الفعلية.

وأمر ثانٍ وهو دخول "مِنْ" الزائدة - التي تفيد الاستغراق والتوكيد - على اسم "ما" النكرة في مواضعها جميعها في القرآن الكريم^(٢).

(١) - يراجع المقتضب للمبرد: ٤ / ١٨٨ - ١٩٠، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، وأسرار العربية لأبي البركات الأنباري: ١١٩، دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، وشرح المفصل لابن يعيش: ٢ / ١١٨.

(٢) - ورد ذلك في جميع مواضعها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَّالٍ﴾ الرعد: ١١، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٠٧، والتوبة: ١١٦، والعنكبوت: ٢٢، والشورى: ٣١، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّالٍ وَلَا نَصِيرٍ﴾ البقرة: ١٢٠، والرعد: ٣٧.

بخلاف اسم "ليس" فقد ورد دون "مِنْ" الزائدة في كل ما ذكرت فيه من النظم الحكيم. (١)

ومن ذلك - أيضًا - أن المقامات التي تتطلب مزيد توكيد وفضل بيان عبر القرآن الكريم عنها بـ"ما" النافية دون "ليس"، ومن ذلك نفي الشرك وإثبات ألوهية الله - سبحانه - في قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، ولم يرد مثل هذا التعبير منفيًا بـ"ليس". (٢)

(١) - ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَايٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الأنعام: ٥١، وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ بِهِ أَنْ نُبَسِّلَ نَفْسًا لِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَايٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ الأنعام: ٧٠، وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ الأحقاف: ٣٢، ويلحظ أن اسم ليس جرد من (مِنْ) وقرن اسم (ما) بها.

(٢) - قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ الأنعام: ٦٦، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ الأنعام: ١٠٧، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ الزمر: ٤١، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ الشورى: ٦، وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ يونس: ١٠٨.

فأرى أنه في الآية الأولى عبر النظم الحكيم بـ"ليس"، فقال: (قل لست عليكم بوكيل) وفي الآية الأخرى عبر بـ"ما"، فقال تعالى: (وما أنت عليهم بوكيل) أو (وما أنا عليكم بوكيل)، وذلك عائد إلى قوة النفي الذي يتجلى من السياق، وهو أظهر من أن يدل على مواضعه بخلاف استعمال ليس. يراجع معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي: ١ / ٢٥٤، وما بعدها، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

اختصاص "ما" بوقوعها في جواب القسم:

ويقوي إفادة "ما" النافية التوكيد وقوعها جواباً للقسم نحو: "والله ما زيد بحاضر"، وذكر سيويه^(١) أن قولهم: "ما فعل" نفي لقولهم: "لقد فعل"، مما يؤيد معنى التوكيد فيها ويقويه.



جاء في (الإتقان): "ومقتضى كلام سيويه أن فيها معنى التأكيد لأنه جعلها في النفي جواباً لـ"قد"، فكما أن (قد) فيها معنى التأكيد فكذلك ما جعل جواباً لها"^(٢)، وذكر السيوطي - أيضاً - في (الأشباه والنظائر) أن النفي فيها أكد.^(٣)

وقد وردت في القرآن الكريم في مواضع عدة جواباً للقسم في الجمل الاسمية والفعلية، وهو ما سيعكف عليه هذا البحث في الصفحات القادمة، محاولاً إظهار إفادة "ما" النافية مزيد توكيد وقوة بيان، دون فعل النفي "ليس"، والله أسأل العون والسداد، إنه - سبحانه - نعم المولى ونعم النصير.



(١) - الكتاب لسيويه: ٣ / ١١٧، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) - الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين للسيوطي: ٢ / ٢٨٩، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(٣) - الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي: ٢ / ٦٢، تحقيق: عبد الإله نبهان وآخرين، مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ومعاني النحو: ١ /

المبحث الأول

صور من دخول "ما" النافية على جواب القسم الاسمي

وانتظم هذا البحث في مطلبين:

المطلب الأول: صور من تقديم المسند إليه على المسند في جواب القسم الاسمي.

المطلب الثاني: صور من تقديم المسند على المسند إليه في جواب القسم الاسمي.

المطلب الأول

صور من تقديم المسند إليه على المسند في جواب القسم الاسمي

ودخلت "ما" النافية على جواب القسم الاسمي الذي تقدم فيه المسند إليه على

المسند في موضعين من القرآن الكريم، هما قوله تعالى ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ

لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ۗ﴾

[المائدة: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّ وَالْقَلْبَ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

بِمَجْحُونٍ ۗ﴾ [القلم: ١، ٢]، وسأحاول سبر أغوار هذين الموضعين، وإبراز شيء

من خصائصهما في هذا المطلب.

فالمتبع لمواضع وقوع "ما" النافية في جواب القسم الاسمي الذي تقدم فيه

المسند إليه على المسند يجد أن الموضع الأول قد انتظمه قوله تعالى ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ

إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ ۗ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ

الْعَالَمِينَ ۗ﴾ [المائدة: ٢٨]

والآية الكريمة جاءت في سياق قصة ابني آدم المحكية في سورة المائدة لتصوير

موقف أحد ابني آدم - وهو هابيل - من تهديد أخيه قابيل بالقتل، وهو موقف

موادعة ومشاركة، وإعلام بالخوف من الله رب العالمين، فمع تهديد أخيه إياه بالقتل

إلا أنه أعلن براءته من هذه الفعلة الشنيعة، وقرر أن يده لن تمتد إلى أخيه بمثل هذا

السوء؛ لخوفه من الله رب العالمين.

والوقوف على مناسبة الآية لما قبلها باب مهم في محاولة فهم جملة جواب

القسم، وإيثار صياغتها على هذا الترتيب البديع في هذا المقام الشنيع؛ لأنه لما نصح

المقتول أخاه بما يمنعه من قتله، ويقدم به على خلاص نفسه، نبهه ثانيًا أن خشية الله

والخوف منه - سبحانه - هو الذي منعه من أن يمد يده إليه بالبطش والقتل، ل

بذلك يلين قلبه بما هو جدير أن يرده عنه؛ خشية أن تجره الممانعة إلى تعدي الحد المسموح به والمأذون فيه الذي يحصل به الدفاع، فهو يستطيع دفعه ولكنه أمسك عن ذلك لخوفه من الله - تعالى.

وقد وقعت "ما" النافية في صدر جملة جواب القسم "ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك"؛ للمبالغة في إظهار براءته عن بسط اليد ببيان استمراره على نفي البسط؛ فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تدل بمعونة المقام على دوام الثبوت؛ كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء لا على انتفاء الدوام، وذلك باعتبار الدوام والاستمرار بعد اعتبار النفي لا قبله حتى يرد النفي على المقيد بالدوام فيرفع قيده، أي: والله لئن باشرت قتلي - حسبما أوعدتني به - وتحقق ذلك منك ما أنا بفاعل مثله لك في وقت من الأوقات^(١).

وقد زاد النفي وكادة، والمعنى قوة دخول الباء الزائدة في خبر "ما"؛ ففيه إشارة إلى أن النفي اعتبر - أولاً - ثم أكد، فالكلام من تأكيد النفي لا نفي التأكيد. وإنما اقتضى المقام - حينئذٍ - كل هذه العناصر من المؤكدات لغرابته واشتماله على ما يثير الدهشة والتعجب؛ لعدم دفعه عن نفسه القتل، الذي هو إزهاق الروح وإنهاء الحياة، مع مجيء الشرائع به، وقيامها على وجوب الدفاع عن النفس، حتى وإن أدى ذلك إلى قتل المعتدي.

ولا اعتبار بما قيل من أنه كان ممنوعاً في شريعتهم؛ لعدم قيام الدليل عليه، ولأن سياق الكلام بعده من قوله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ينقضه؛ فإنه قد نصّ فيه على العلة التي من أجلها كفّ يده عن أخيه، وليس فيها هذا الاعتبار.

(١) - تفسير أبي السعود: ٣ / ٢٧.

وبدليل تقديم المسند إليه في سياق النفي "ما أنا" للتخصيص ونفي الحكم عن المسند إليه المقدم خاصة، وإثباته لغيره بطريق اللزوم، كما هو مقتضى قاعدة عبد القاهر الجرجاني في هذا الشأن^(١)، أو عدم التعرض لغيره بإثبات أو نفي، على الوجه الذي استدركه الدكتور محمد أبو موسى على قاعدة الشيخ^(٢)؛ فإن هذا يقتضي أن هذا ليس حكمًا عامًا يشمل غيره من البشر، وإنما كان أمرًا خاصًا به.



وإنما عدل في تركيب هذه الجملة عن الفعلية إلى الاسمية، حيث عبر باسم الفاعل في قوله "باسط"؛ ليؤكد على أنه لا يفعل ما يكتسب به هذا الوصف الشنيع؛ ولذلك أكد بالباء المؤكدة للنفي، فمع أن المقتول كان أقوى من القاتل وأبطش منه، ولكن تخرج عن قتل أخيه واستسلم له؛ خوفًا من الله تعالى؛ ربما لأن الدفع لم يكن مباحًا في ذلك الوقت، أو لعل ذلك كان واجبًا، فإن فيه إهلاك نفسه ومشاركة للقاتل في إثمه، وإنما قتله فتكًا على غفلة منه.

ولا يخفى أن جملة "ما أنا بياسط يدي.." جواب القسم الموطأ له باللام؛ لأنه إذا اجتمع الشرط والقسم فالجواب يكون للسابق منهما، لكنها لدلالاتها على جواب الشرط كانت في المعنى جوابًا له، ولو كانت جواب الشرط حقيقة لاقرنت بها الفاء، كما هو معلوم.

على أنه في إثارة مادة "البسط" في جملة جواب القسم دقة بيان وروعة تعبير، تصور ذلك البون الشاسع بين الأخوين، والهوة السحيقة بين ما يضمه كل منهما

(١) - يراجع دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني: ١٢٤، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

(٢) - يراجع خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى: ٢٣٣، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٢ م.

لأخيه، فالمقتول لم يردّ الإساءة بمثلها ولم يقل: "وما أنا بقاتل"، بل قال: "ببساط"؛ للتبري رأساً عن مقدمات القتل وأسبابه فضلاً عن الوقوع فيه والتلبس به.

والدليل على غرابة هذا الموقف الصادر عن هابيل تجاه أخيه قابيل، وتقديره إياه الذي اقتضى تقرير الكلام وتوكيده؛ أنه أتبع هذا الحكم المنفي "المائل في جملة جواب القسم" بعلته ودليله وبرهانه المصحح، والمقتضي له في المنطق والعقل؛ ليزيل بذلك كافة أوجه الاستغراب من حول هذا الحكم العجيب.

وقدم الجار والمجرور على المفعول الصريح "يدك" للإيدان من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه، كما أن التقديم يفيد تعجيل تذكيره بنفسه، المنجر إلى تذكيره بالأخوة المانعة عن القتل، فلئن باشر قتله حسبما أوعد به، وتحقق ذلك منه، ما هو بفاعل مثله لأخيه في وقت من الأوقات.

وقيد المسند بالمفعول "يدي" والجار والمجرور "إليك"، وكذلك المصدر المؤول المجرور "لأقتلك"؛ ليكون الرد موافقاً للتهديد السابق في شكله وهيئته وطريقة بنائه، وذلك على نحو من المقابلة البديعة الرائعة التي تعكس البون الشاسع والهوة السحيقة بين الموقفين: "موقف قابيل وموقف هابيل"، وهي من مقابلة أربعة معانٍ بأربعة معانٍ؛ لأن القتل الأول اعتداء والقتل الثاني دفع أو مجازاة لهذا الاعتداء.

واستخدام أداة الشرط "إن" في هذا الموضع خرجت على خلاف مقتضى الأصل في استعمالها؛ لأنها إنما تستخدم في الأمر المشكوك في وقوعه، أو النادر حدوثه، وبسط قابيل يده إلى أخيه بالقتل مقطوع به، مجزوم بحدوث؛ بدلالة قوله "لأقتلنك"، فكان هذا الموضع لـ"إذا" دون "إن".

على أن الكلام قد بني على هذا النحو لأن هاويل كأنه أراد أن ينعي عليه ما يريد أن يقدم عليه من جرم ويوبخه عليه، وأنه ما كان ينبغي له أن يهدد هذا التهديد، أو يتوعد هذا الوعيد، أو حتى يفكر فيه.



وإنما توخى حسن الترتيب في عجز الآية دون صدرها لأن حسن الترتيب منع منه مانع أقوى في صدر الآية، وهو مخافة أن يتوالى ثلاثة أحرف متقاربات المخرج، فلذلك حسن تقديم المفعول الذي تعدى الفعل إليه بالحرف على الفعل الذي تعدى بنفسه. (١)

وقوله تعالى: "إني أخاف الله رب العالمين" تعليل للامتناع عن بسط يده ليقته، وفيه إرشاد قابيل إلى خشية الله تعالى على أتم وجه، وتعريض بأن القاتل لا يخاف الله - تعالى، وفي وصفه - تعالى - بربوبية العالمين تأكيد للخوف وحرص عليه.

وجاء الموضع الثاني من مواضع جواب القسم الاسمي الذي تقدم فيه المسند إليه على المسند في قوله تعالى: ﴿رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَّبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] في مستهل سورة القلم تنزيهاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتبرئة لساحته، مما رماه به المشركون من الجنون، ورداً حاسماً لهذا الافتراء في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم.

وقد جاء هذا الرد في صورة القسم تأكيداً على مضمونه، وتقريباً لمعناه، وإنما جاء القسم بالقلم خاصة لمكانة النون في مستهل السورة الكريمة، التي ينصرف الذهن عند إطلاقها مباشرة إلى الحرف الهجائي المعروف، مع أن هذا المعنى قد

(١) - يراجع البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي: ٣ / ٣٧٩، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (ثم صورته دار المعرفة - بيروت، وبتقييم الصفحات نفسها).

يكون غير مراد؛ إذ قالوا في توجيهها عدة معانٍ على نحو ما ذكره في غيرها من الحروف المقطعة في أوائل السور. (١)

ثم ثنى بالقسم الآخر في قوله "وما يسطرون"، والمناسبة بينه وبين القسم الأول ظاهرة معلومة؛ لأن ذكر الكتابة من لوازم ذكر القلم، وإليها ينصرف الذهن مباشرة عند ذكر القلم.

ثم جاءت جملة جواب القسم: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ قوية في الرد، موغلة في الحسم والقطع؛ لما اشتملت عليه من كثير من عناصر التوكيد والتقرير التي تضرب على أوتار تحقق مفهوم جملة الجواب المنفية، ابتداءً من تصدر "ما" النافية في مستهل جملة الجواب، وما تتسم به من مزيد تقرير وتوكيد على النحو الذي سبق تفصيله في الآيات السابقة.

وحمل الكلام على هذا الوجه يكون مناسباً تمام المناسبة لمقام الرد الذي يتطلب قوة وحسمًا، ويطلب وكادة وحزمًا.

وقدم قوله تعالى ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ الذي جاء نفيًا لقولهم في نهاية السورة ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾؛ ليكون أبلغ في تعظيمه - صلى الله عليه وسلم - وأخف وطئًا عليه، وأبسط لحاله في تلقي ذلك الزعم منهم؛ ولذلك "قدم مدحه - صلى الله عليه وسلم - بما خص به من الخلق العظيم، فكان هذا أوقع في

(١) - يراجع تفسير الطبري، المسمّى: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري: ١ / ٥٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، والبرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي: ١ / ١٧٢ وما بعدها، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) لجلال الدين السيوطي: ١ / ١١٨ وما بعدها، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الإجلال من تقديم قولهم ثم رده إذ كسر سورة تلك المقالة الشنعاء بتقديم التنزيه عنها أتم في الغرض وأكمل" (١).

ووجه المناسبة بين القسم بالقلم وما يسطرون وبين المقسم عليه المماثل في نفي الجنون عنه؛ لما أن باعث الطاعنين على الرسول - صلى الله عليه وسلم - والرامين له بالجنون، إنما هو ما أتاهم به من الكتاب (٢)، مع أنه أُمي لا يقرأ ولا يكتب.

وأوثر القسم بالقلم - خاصة - في هذا المقام لشرف مكاتته ورفعة منزلته؛ فهو الذي يسطر به القرآن، وسطرت به الكتب السماوية الأخرى، وهذا كله مما له عظيم شرف ووسيع فضل عند الله - تعالى.

وإنما دخلت "ما" على الجملة الاسمية لتأكيد وتقرير ثبوت نفي الجنون عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولزومه ودوامه، وأنه لم يكن في حال من الأحوال متلبساً بهذه الصفة الذميمة.

وأفاد تقديم المسند إليه - هنا - تقوية الحكم وتوكيده وليس تقديمه للتخصيص؛ لما يترتب على الحمل على التخصيص من فساد المعنى وعدم صحته؛ إذ يترتب عليه أنه - صلى الله عليه وسلم - وحده المنفي عنه هذه الصفة دون غيره من المؤمنين من عموم أمته، وحتى من إخوانه السابقين من النبيين والمرسلين، وهذا غير مراد.

(١) - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي: ٢٠ / ٢٩٠، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، (د.ت).

(٢) - يراجع التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور: ٢٩ / ٦١، الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر:

وجاء التعبير بضمير الخطاب في المسند إليه لأن المقام مقام حضور؛ فإنه في خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أوفق وألصق بمقام الرد؛ لما فيه من حسم وجزم وقطع لتعين مدلوله، وظهور المراد منه.

والمقصود بـ "نعمة ربك" قيل هي النبوة، ورجاحة العقل، فقول هؤلاء الأفاكين باطل متناقض؛ لأن المجنون مغطى على عقله، وما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بصدق النبوة ورجاحة العقل شيئاً من ذلك، فنعمة الله - تعالى - على نبيه كانت ظاهرة في حقه - صلى الله عليه وسلم - ومن ذلك كمال الفصاحة والعقل، والسيرة المرضية، والبراءة من كل عيب، والانتصاف بكل مكرمة، فحصول ذلك وظهوره جارٍ مجرى اليقين في كونهم كاذبين في قولهم: إنه مجنون. (١)

وقيد المسند بالمجرور المضاف إلى عنوان الربوبية "بنعمة ربك"؛ للتنبيه إلى سبب رميهم إياه بالجنون، وهو محض إنعام الله عليه بالنبوة والرسالة؛ ليلفت الانتباه إلى أن دافعهم إلى رميه بهذه التهمة إنما هو محض الحقد والحسد، والافتراء والكذب.

وتقديم الجار والمجرور على المسند "بمجنون" رعاية للفاصلة من جانب، وتعجيلاً لإظهار غاية فضل الله وتصوير منه على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بقريته إضافة النعمة إلى عنوان الربوبية؛ تفخيماً وتعظيماً من شأنه، أو بقريته إضافة عنوان الربوبية إلى ضمير خطابه - صلى الله عليه وسلم - تشریفاً وتكريماً.

(١) - يراجع الكشف لجار الله الزمخشري: ٤ / ٤١٢، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: ٥ / ٣٤٦، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي: ١٠ / ٢٣٥، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

وإفراد النعمة للإشارة إلى أن نعمة النبوة هي الحقيقة بهذا المسمى الجديدة به، وأن ما عداها دونها في الرتبة والمنزلة، وهذا فيه من التعظيم والتفخيم من شأن النبوة والرسالة ما لا يخفى على متأمل.



وعبر عن النبوة بلفظ "النعمة" للدلالة على غاية الإفضال ونهاية اللطف والرحمة وفرط المنة، وأفادت الباء في هذا المقام تأكيد نفي الجنون عنه - صلى الله عليه وسلم.

وأعقب النفي المائل في الجواب القسمي بالإثبات في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ تأكيداً لنفي الجنون عنه - صلى الله عليه وسلم؛ فإن ثبوت الأجر المتصل له وتحقيق كونه على خلق عظيم، مما يقتضي تمام العقل وكمال الحكمة، وفي هذا الإثبات أيضاً دلالة على فرط المنة وتمام النعمة، وعظيم الفضل ونهاية الإحسان.



المطلب الثاني

صور من تقديم المسند على المسند إليه في جواب القسم الاسمي

ودخلت "ما" النافية على جواب القسم الاسمي الذي تقدم فيه المسند على

المسند إليه في موضعين من القرآن الكريم -أيضاً، وهما قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِن أُتَّبِعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مُّجِبًا دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ لَعَلَّ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:

[٤٤

وأما الموضع الأول فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن أُتَّبِعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

جاءت الآية الكريمة في سياقها بياناً لموقف أهل الكتاب من النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوته، وتبيساً وإقناتاً من إسلام هؤلاء القوم ما لا غاية مرجوة وراءه؛ فإنهم لن يرضوا عنه - صلى الله عليه وسلم - ولو تركهم يفعلون ما يفعلون. وجاءت الجملة القسمية - التي وقعت "ما" النافية في جوابها - في فاصلة الآية الكريمة - إلهاباً وتهيجاً للنبي - صلى الله عليه وسلم - للاستمرار على الحق الذي هو عليه، وعدم الحيدة عنه، والمداومة في الدعوة إليه، ولا يخفى أن هذا المعنى يتسق إذا ما كان الخطاب مقصوداً به النبي - صلى الله عليه وسلم - في الجملة، وموجهاً إليه.

وأما إذا كان الخطاب عامًا لكل من تصلح مخاطبته من عموم الأمة؛ فالمعنى المراد من الجملة - حينئذ - هو التحذير لكل من دخل في دين الله الحق بأن لا يهيد عنه، ويتبع هواه بالدخول في أهواء الأمم الأخرى من أهل الزيغ والضلال.



كما أن في الجملة - أيضًا - لفتًا وتحذيرًا من الشغف والتزلف لليهود والنصارى باسترضائهم وملايبتهم؛ طمعًا في إسلامهم، فهؤلاء القوم متشبثون بباطلهم، ثابتون على كفرهم، وبلغ حالهم في تشدهم أنهم يريدون - مع كل ذلك - أن يتبع ملتهم الباطلة، ولا يرضون منه - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب، وإنما يريدون منه موافقتهم فيما هم عليه من زيغ، بقرينة دخول "لن" النافية في صدر الآية الكريمة، التي تفيد النفي المؤيد المؤكد، فبان بذلك ما يضمرونه من بغض شديد وحقد دفين للرسول - صلى الله عليه وسلم - وشرح ما يبرر اليأس من موافقتهم.

والناظر في جملة جواب الشرط يجد أن "ما" وقعت في صدر جملة جواب القسم، وإيثار "ما" في النفي - دون أخواتها من الأدوات الأخرى - هو الأبلغ في هذا المقام؛ لو كادتها في النفي وقوتها فيه، بدليل أنها وقعت في صدر جواب القسم، يقول سيبويه: "وإذا قال: لقد فعل فإن نفيه ما فعل؛ لأنه كأنه قال: والله لقد فعل، فقال: والله ما فعل" (١).

وهذا يقتضي أن دخول "ما" على جملة الجواب يفيد مضمونها قدرًا زائدًا من التقرير والتوكيد والتثبيت والتمكين، فكما أن القسم و"قد" من أبرز وسائل التوكيد وأسبابه في الكلام، فكذلك ما جعل جوابًا أو نفيًا له (٢).

(١) - الكتاب: ٣ / ١١٧.

(٢) - يراجع الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ٢٨٩.

وقد تعانق مع "ما" في تقرير مضمون الكلام وتوكيده، وهو نفي الولاية والنصير عن المخاطب به في الجملة الكريمة أولاً تقديم المسند المجرور "لك" على المسند إليه لتقوية الحكم وتوكيده، ومن تقدم المتعلق "من الله" على المسند إليه "ولي"؛ للتنبيه على خطورة الأمر وعظم الخطب، وتربية المهابة في نفوس المخاطبين؛ حتى لا يرد الأمر المحذر منه لهم على خاطر.

ومن دخول "من" النافية على المسند إليه لتأكيد العموم والشمول الكائن في النكرة "ولي"، ومن إعادة حرف النفي مع "نصير" في قوله "ولا نصير" لتأكيد النفي وتقريره، فلا معين يعصمك ويدفع عنك، بل الله - وحده - هو الذي يعصمك من الناس، ويحوطك بعنايته، إذا أقمت على الطاعة وداومت على الاعتصام بحبله المتين.

ومن عطف العام على الخاص؛ حيث نفي الولاية صريحة - أولاً - في قوله "من ولي"، ثم نفاها ضمناً - ثانياً - في قوله "ولا نصير" باعتبارها من جنس النصره، وهذا تقرير للكلام على تقرير، وتوكيد له ما بعده توكيد.

ومن دخول "ما" على الجملة الاسمية - التي تفيد الثبوت والدوام - الذي يقتضي تقريراً وتوكيداً أيضاً.

ومن إثارة وزن المبالغة في المسند إليه المنفي "نصير"؛ لتأكيد انتفاء كل صور الولاية أو النصره، فهذا قطع صريح لأطماعهم أن تتبع أهواؤهم؛ لأن من أيقن أنه لا ولي له يدعمه ولا نصير ينفعه إذا اقترف شيئاً كان أبعد في أن لا يقترفه، وذلك تيسر لهم في أن يتبع أهواءهم أحد.

وفي نفي الولاية - أيضاً- تعريض بهم في اعتقادهم أن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه فنفى ذلك عنهم؛ حيث لم يقبلوا الإسلام، ثم نفى الأشمل منه، وهذا سر عدم الاقتصار على نفي الأشمل.



وإيثار "إن" في تعليق الشرط بالجزاء روعي فيه المقام، وناسب مقتضى الحال؛ لأن هذا شرط مستحيل حدوثه في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين، فكيف يتأتى اتباع النبي - صلى الله عليه وسلم - لأهواء هؤلاء المنحرفين عن الجادة، المتبعين أهواءهم.

وتأكيد هذه الاستحالة من أن استعمال "إن" كان جارياً على الأصل في دلالتها؛ إذ تستعمل في الشرط غير المجزوم بحصوله.

ومن وقوع الماضي شرطاً لها "اتبعت"؛ وذلك للمبالغة في تأكيد هذه الاستحالة، فلم يثبت ذلك فيما مضى في وقت من الأوقات أو في حال من الأحوال، ومن تقييد فعل الشرط بالظرف المضاف إلى الموصول "بعد الذي جاءك من العلم".

ومن إيثار التعريف بالموصولية - أيضاً- في المضاف إليه "الذي جاءك من العلم"؛ فإن التعريف بالموصولية - هنا- لزيادة تقرير وتمكين الغرض المسوق له الكلام، وفيه تعريض بدم اليهود والنصارى بالجهل وعدم العلم؛ فإن تقرير أن ما جاءه هو العلم يقتضي أن خلافه جهل وهوى، وليس من العلم في شيء، وهذا يقتضي الذم.

وإنما عبر بالأهواء تقريراً لغاية ذمهم وقبح فعلهم، وشناعة مسلكهم؛ لعدم قيامه على دليل صحيح أو برهان صادق، يستندون إليه، ويتكئون عليه، فالأمر مرده إلى ما تميل إليه نفوسهم من البدع والانحراف عن الجادة؛ ولذلك عبر بصيغة الجمع

"أهواء"؛ لأنه لما كانت مختلفة جمعت، فنوازعهم شتى، ومشاربهم متفرقة، ولو حمل على أفراد الملة لقيط: "هواهم".

وتقييد الشرط بقوله "بعد ما جاءك من العلم" للدلالة على أن "متابعة أهوائهم محال؛ لأنه خلاف ما علم صحته، فلو فرض وقوعه كما يفرض المحال لم يكن له ولي ولا نصير يدفع عنه العذاب، وفيه أيضاً من المبالغة في الإقنات ما لا يخفى"^(١).

وجاء الموضع الثاني لجواب القسم الاسمي الذي تقدم فيه المسند على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا وَسَبَبْنَاهُم لِأَعْيُنِنَا لِيَدْفَعَهُم بِحَبَابِ الْعَذَابِ لَمَّا كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا وَالْعَذَابَ أَشَدَّ مِنْ نَارِ السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٤]

وهذه الآية جاءت في سياق آيات هدد الله فيها الظالمين، وتوعدهم بصنوف من العذاب وألوان من العقاب في الدنيا والآخرة؛ لتوبيخهم وتقريعهم على طلبهم التأخير والإمهال لإجابة الدعوة، واتباع الرسول بتذكيرهم بما غلظوا عليه الأيمان قبل ذلك بتمتعهم بالحظوظ الدنيوية، أو بالسنة الحال؛ حيث بنيتهم مشيداً وأملتهم بعيداً، ولم تحدثوا أنفسهم بالانتقال منها إلى هذه الحالة، أو بما أقسموا عليه من عدم زوالهم من هذه الدنيا إلى دار أخرى للجزاء والحساب^(٢).

وقد جاء هذا التوبيخ والتقريع موافقاً للمقام ومصيباً للغرض لدلالته على مدى الخزي وفرط الهوان الذي لحق بهم، مع ما كانوا يمتلكون من أسباب القوة

(١) - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي: ١/ ٣٧٠، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

(٢) - يراجع تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي: ٥ / ٥٦، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (د.ت).

والبطش، ولدلالته - من وجه آخر- على قدرة المهدد على إنفاذ ما هدد به وتحقيقه، وأنه لا يقيم لهم وزنًا ولا اعتبارًا.

وجملة جواب القسم "ما لكم من زوال" فيها إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه، وهذا معنى يؤكد دخول "ما" النافية في صدر جملة الجواب؛ لأبلغيتها في النفي ووكادتها فيه، ودلالتها - أيضًا- على امتداد النفي الذي يشعر به امتداد النفس بصوت مداه؛ ولذلك يجاب بها القسم.

على أن دخول "من" النافية على المسند إليه النكرة "زوال" يفيد العموم والشمول، ولا شبهة في أنهم كانوا يزعمون بأنهم لا زوال لهم من هذه الحياة الدنيا إلى حياة أخرى، ومن هذه الدار إلى دار الجزاء، لا أنهم كانوا ينكرون أن يزولوا عن حياة إلى موت، أو عن فقر إلى غنى، أو عن شباب إلى هرم.

وتقديم المسند "ما لكم" على المسند إليه يدور في تحقيق هذا الغرض - أيضًا- لإفادته معنى القصر والاختصاص، وأن هذا الزوال منفي عنهم دون غيرهم.

ثم إن لحروف المد - في جواب القسم - أثرًا بالغًا في تأدية المعنى المراد؛ إذ إن فيه إشعارًا بامتداد زمان التأخير وبعد مداه؛ حيث تمتعوا بالحظوظ الدنيوية، ولم يحدثوا أنفسهم بالانتقال منها إلى هذه الحالة.

وقد زاد من نبرة التوبيخ وحدة التقريع في الجملة القسمية وقوع الاستفهام الداخلة على حرف النفي في صدارتها، فأفاد التقرير بمعنى التحقيق والتشيت، كأن المعنى: قد أقسمتم من قبل ما لكم من زوال، وقد صرتم الآن إلى ما صرتم إليه من دار أخرى بعد أن كفرتم بالبعث وأنكرتموه، وهذا غاية التوبيخ والتعنيف ونهاية الزجر والتقريع.

وإنما أوتر التعبير بفعل الكون المضارع المنفي للدلالة على أن هذا القول -
المجرب به القسم- كان ممتدًا فيهم، ضاربًا بجذوره في تاريخهم، وأنه ما زال
مستمرًا ومتكررًا منهم إلى الآن، فالظالمون في الدنيا كانوا ينتهجون نهجًا واحدًا في
الشرك، يتلقفه لاحقهم عن سابقهم.

وجاء التقييد بالظرف المجرور "من قبل" لتأكيد المعنى الذي أفاده فعل الكون
المضارع وتقريره.

وإنما أطلق القيد "من قبل" ولم يحدده للدلالة على عموم تلك القبيلة سائر
أجزاء الزمن السابق، قريبًا كان أو بعيدًا، قليلًا كان أو كثيرًا.

وصيغ الكلام - في جملة الجواب- على نسق الخطاب "ما لكم من زوال"
إجراءً للنسق على وتيرة واحدة، مراعاةً لجملة القسم التي جاءت على نهج
الخطاب "أقسمتم"، ولو جاء النسق على طريقة الحكاية ل قيل: "ما لنا من
زوال"، فالجملة بيان للجملة السابقة "أقسمتم"، وليست على تقدير قول
محذوف.

وقد وطأ لأسلوب القسم عدة أساليب إنشائية، كانت كالمقدمة له والمهيئة
لمضمونه مثل: الأمر "أنذر"، والنداء "ربنا"، ثم الأمر مرة أخرى "أخرنا"، فهؤلاء
الذين كفروا بالبعث يتمنون أن يردوا إلى الدنيا وأن يمهلوا إلى أمد وحد من الزمان
قريب، يتداركون ما فرطوا فيه من إجابة الدعوة واتباع الرسل.

وإسناد الإتيان إلى العذاب مجاز عقلي لتفطيع العذاب وتهويله، وتأمل ما في
الأسلوب من تصوير وتشنيع لذلك العذاب، وإنذار للظالمين ومن سلك مسلكهم؛
حتى لكانه يتحرك إليهم بنفسه.





المبحث الثاني

صور من دخول "ما" النافية على جواب القسم الفعلي

وانتظم هذا البحث في خمسة مطالب:

- المطلب الأول: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الكون.
- المطلب الثاني: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من القول.
- المطلب الثالث: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من المجيء.
- المطلب الرابع: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الضلال.
- المطلب الخامس: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من التوديع.

المطلب الأول

صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الكون

ودخلت "ما" النافية على الفعل الماضي من الكون في موضع واحد من الكتاب العزيز وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، والآية الكريمة جاءت في سياقها جواباً من المشركين عن سؤال الحق - سبحانه وتعالى - إياهم عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، وإنكاراً منهم وقوعهم في الشرك من أصله.

وقد جاء هذا الرد مؤكداً بأبلغ وأقوى أساليب التأكيد؛ ابتداءً بالقسم الذي أوتر في المقسم به لفظ الجلالة والواو الداخلة عليه؛ تفخيماً للمقسم به وتعظيماً من شأنه، وتنبهاً على أنهم جادون في الأمر عازمون فيه، ثم بإبدال عنوان الربوبية "ربنا" وإضافته إلى أنفسهم من القسم السابق؛ استثارة لدواعي الرحمة، وأسباب المغفرة، وعوامل النجاة، ومبالغة في التنصل من الشرك؛ أي: لا رب لنا غيره.

ومروراً بدخول "ما" النافية في صدر جملة جواب القسم؛ تحقيقاً لمضمونها وتقريراً لمعناها، وهي نفي الشرك عن أنفسهم انتفاءً تاماً، وقد زادوا النفي وكادة بإيثار فعل الكون الماضي الذي يدل على أنهم ضاربون بجذورهم في هذا الوصف المنفي في أعماق الزمن السحيق، وأن انتفاء الشرك عنهم صفة لازمة لهم متأصلة فيهم.

وعبر عن المستقبل بلفظ الماضي في قوله تعالى: "إلا أن قالوا" للدلالة على تحقق الوقوع؛ لأن ما هو للوقوع في علم الله كالواقع حقيقة.

وتشي صيغة الجمع في قوله "قالوا"، و"كنا"، و"مشركين" بتواطئهم جميعاً على هذا القول واجتماع كلمتهم عليه، وتتابعهم على الرضا به.

وإنما سمى ردهم فتنة لأنه كذب كله، أو لأنه يفضي بهم إلى الفتنة، فلم يكن حبهم للأصنام وإعجابهم بها واتباعهم لها - لما سئلوا عنها، وأيقنوا بعجزها- إلا التنصل منها والإنكار لها، وهذا تويخ لهم، وتسفيه لمعتقدتهم.



وقد تعانق مع كل الوسائل السابقة خروج الآية الكريمة مخرج القصر بطريق النفي والاستثناء؛ حيث قصر كون فتنتهم على قولهم: "والله ربنا ما كنا مشركين" قصر صفة على موصوف، قصرًا إضافيًا تنزيليًا للمبالغة، كأنه قصر فتنتهم على هذا القول، دون اعتداد بغيره مما سواه؛ لشناعته وغرابته ومخالفته للواقع المشهور عنهم.

على أن وقوع القسم وجوابه في حكاية القول فيه دليل على أنه مجرد قول، لا وزن له ولا قيمة، وأنه مما لا يؤبه به ولا يلتفت إليه، كما أن حكاية هذا القول عنهم مما يشي بعدم قناعتهم بهذا القول.



المطلب الثاني

صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من القول

ينضوي تحت هذا المطلب موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وهذه الآية جاءت في سياقها تكديباً ورداً على المنافقين مقالتهم في شأن النبي - صلى الله عليه وسلم، وذلك بناءً على ما جاء في أسباب النزول من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن، ويعيب المنافقين المتخلفين قائلاً لهم: يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم؟ فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذاباً لهم. (١)

وجاء هذا التكذيب والرد مؤكداً غاية التأكيد ليكون مساوياً لقولهم في التأكيد على نفي صدور الكفر عنه بصيغة القسم التي أوثر في المقسم به الفعل المضارع "يحلفون" - مع أن هذا أمر قد وقع في الزمن الماضي - وذلك للدلالة على استحضار الصورة ووضعها ماثلة أمام الأعين؛ تشنيعاً وتبشيعاً لهذا القول الخبيث المنكر.

ويجوز أن يكون التعبير بصيغة المضارع للدلالة على أن هذا الحلف الكاذب هو ديدنهم الذي يتكرر مرة بعد مرة وحالاً بعد حال، كلما عنت أسبابه وتكررت موجباته.

وجعل متعلق فعل الحلف لفظ الجلالة لتفخيم اليمين وتعظيمها، والتأكيد على صدقها؛ لما في لفظ الجلالة من معاني الفخامة والعظم، وإدخال الروع في ذهن السامع.

(١) - يراجع أسباب النزول للواحدي: ٢٥٦، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب

العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، وتفسير أبي السعود: ٤ / ٨٤.

وبدخول "ما" في جملة الجواب التي أفادت تأكيد مضمونه وتحقيق معناه، وإيثار صيغة الماضي "قالوا" في جملة الجواب للتأكيد على نفي تحقق هذا القول ووقوعه.



وأسند الفعل الماضي من القول إلى ضمير جماعة المنافقين - مع أن القائل له هو الجلاس وحده - كناية عن إخفاء اسم القائل؛ كما يقال: ما بال أقوام يفعلون كذا. وقد فعله أحدهم، أو على اعتبار قول أحدهم وسماع البقية فجعلوا مشاركين في الأمر؛ كما يقال: بنو فلان قتلوا فلاناً، وإنما قتله فرد منهم، وإن صح صدور كلمة من واحد معين فهذا لا يوجب أنه لم يشاركه فيها غيره؛ لأنهم كانوا يتآمرون على ما يخلتقونه، وكان ما يصدر من أحدهم يتلقفه جلساؤه. (١)

وحذف المفعول به اكتفاء بدلالة قرينة الحال على ما جاء في أسباب النزول، واكتفاءً بما ورد في قرينة الحال في قوله تعالى: "ولقد قالوا كلمة الكفر".

وإنما جاء الجواب منفياً بـ "ما" للمبالغة في تأكيد نفي القول؛ لوقوعه في جواب القسم الذي يقتضي تقريراً وتوكيداً زائداً، وهو ما تحققه "ما" دون غيرها من أدوات النفي الأخرى؛ ولذلك جاء الرد عليهم مبالغاً ومؤكداً عليه، إجراء للنسق في نظم الآية وتركيبها على شاكلة واحدة، وذلك في قوله "ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم.. من خلال القسم المحذوف الموطأ له بـ "اللام"، وحرف التحقيق "قد"، وإيثار صيغة الماضي "قالوا"؛ لأن المقام مقام جحد وإنكار مبالغاً فيه، وهو ما تطلب كل هذه المؤكدات.



(١) - يراجع التحرير والتنوير: ١٠ / ٢٦٩.

المطلب الثالث

صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من العلم

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَادِقِينَ ﴾ [يوسف: ٧٣]، وهذه الآية جاءت في سياقها في مشهد من مشاهد قصة يوسف - عليه السلام - وهو مشهد وضع السقاية في رحل أخيه؛ قصداً إلى تبرئة ساحتهم مما نسب إليهم من سرقتهم صواع الملك، ورداً إلى قول المؤذن بذلك.

ولما كان المقام مقام إنكار ورفض شديد لأن هذه التهمة التي رموا بها تهمة شنعاء؛ جاء ردهم عليها، وتنزيه أنفسهم منها، وتبريء ساحتهم على أبلغ وجه وأتمه، من خلال احتشاد كثير من عناصر التوكيد ووسائله في نسق الكلام، وهذا هو المطابق لمقتضى حالهم في قوة الإنكار والجحد.

وهذا مما راعى المتكلم فيه حال نفسه، وحال مخاطبه - أيضاً - في الإنكار والجحد؛ إذ كل منهما منكر لما يعتقدُه الآخر ويرمي به.

وقد جاء رد الإخوة في صورة مؤكدة، هي صورة القسم المستخدمة فيه "تاء القسم"، وهي أغرب حروف القسم وأقلها استعمالاً، وهذا يتناسق مع غرابة التهمة التي اتهمهم المؤذن بها، وبعدها عن الحقيقة والواقع.

ثم إنه استخدم العلم الجليل "لفظ الجلالة" لأنه أمعن في التأكيد وأبلغ في الرد؛ لما يشتمل عليه من معاني التأكيد والفخامة والعظم والمهابة.

على أنهم قد أكدوا قسمهم بجملة قسمية أخرى وقعت معترضة بين القسم وجوابه، وهي جملة "لقد علمتم" التي جاءت مؤكدة باللام المؤكدة للقسم،

وبحرف التحقيق "قد" الداخلة على الفعل الماضي، وبإيثار صيغة الماضي من العلم خاصة "علمتم" التي تدل على التحقق والجزم واليقين.

وإنما أوثرت صيغة الماضي من العلم - دون غيرها - للدلالة على شدة ظهور الأمر ووضوحه، وأنه صار بمراءى ومسمع من الجميع، وذلك بناء على ما علم من حالهم قبل ذلك من أنهم كانوا وفدوا على مصر مرة سابقة واتهموا بالتجسس، فتبينت براءتهم بما صدقوا يوسف - عليه السلام - فيما وصفوه من حال أبيهم وأخيهم^(١)؛ فقد استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ومدخلتهم للملك؛ مما يدل على فرط أمانتهم، كرد البضاعة التي جعلت في رحالهم وكعم الدواب؛ لتلا تناول زرعاً أو طعاماً لأحد.^(٢)

وبدخول "ما" في جواب القسم لتقرير مضمون الجواب وتحقيقه وتشبيته وتمكينه، وبدخولها - أيضاً - على الفعل الماضي من المجيء فيه تأكيد على النفي، فبناء الكلام على هذا النسق فيه مبالغة في نزاهتهم عما نسب إليهم، فالإفساد ما مر لهم ببال ولا تعلق لهم بخيال، فضلاً عن وقوعه منهم.

وإسناد فعل المجيء إلى ضمير الجماعة دليل على استوائهم جميعاً في العدالة والفضل والشرف، وعدم تفاوتهم في ذلك، فقد روي أنهم "كانوا يعكمون أفواه

(١) - يراجع التحرير والتنوير: ١٣ / ٢٩.

(٢) - يراجع تفسير البيضاوي، المسمى: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي: ٣ / ١٧١، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨ هـ.

إبلهم لثلاث تنال من زروع الناس وطعامهم شيئاً، واشتهر أمرهم في مصر بالعفة والصلاح والمثابرة على فنون الطاعات" (١).

وعبر هنا بالمصدر المؤول لأن الفعل المضارع منصوب بـ "أن" مضمرة بعد لام التعليل، و"أن" وما دخلت عليه في تأويل مصدر مجرور بـ "اللام"؛ إذ التقدير: ما جئنا للإفساد.

وتكمن قيمة المصدر المؤول في أنه يجمع بين معنيين متنافيين قلما يجتمعان؛ لأنه يدل على الثبوت والدوام باعتبار ما يؤول إليه، وهو الإفساد، ويدل على التجدد والحدوث باعتبار صيغته قبل التأويل.

والألف واللام في لفظ "الأرض" تفيد العهد؛ إذ المقصود أرض مصر، وإنما أطلق الأمر على هذا النحو دون تقييد إما لقيام القرائن على ذلك، وإما للدلالة على أن مصر كانت قبلة القاصي والداني في هذا الزمان الذي عمت فيه المجاعة معظم بقاع الأرض.

وجملة "وما كنا سارقين" معطوفة على جملة جواب القسم، والغرض من مجيئها على هذا النحو يكمن في المبالغة في التأكيد على براءة ساحتهم، ونزاهة ذيلهم وطهارته مما نسب إليهم من السرقة؛ إذ إن مضمونها هو عين مضمون الجملة الأولى، فإن السرقة من جنس الإفساد في الأرض، بل إن السرقة من أعظم أنواع الإفساد.

وعلى هذا فالجملة الثانية من ذكر الخاص بعد العام؛ للدلالة على فظاعة السرقة وشناعتها، حتى كأنها صارت جنساً مغايراً لجنس الإفساد، تنزيلاً للتغاير في الصفة منزلة التغاير في الذات.

(١) - روح المعاني: ٧ / ٢٦.

ولا يخفى أن لدخول النفي في هذه الجملة - على الفعل الماضي من الكون- أثراً بارزاً في تعميق النفي وتقوية مضمونه؛ لدلالته على أن البراءة والشرف والعفة صفات متأصلة فيهم، وأنها ضاربة بجذورها في أعماق الزمن السحيق، وهذا مما يتطابق مع الواقع ظاهراً وباطناً، شكلاً ومضموناً، فهم أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه.



ومن إيثار اسم الفاعل "سارقين" في خبر "كان"؛ فإنه أقوى في الدلالة على نفي السرقة عنهم؛ لأن السرقة وصف يُتعبّر به، فاقتضى المقام نفيه على وجه الثبوت والدوام.

وأما الإفساد في الأرض فهو أمر نسبي، يختلف باختلاف الزمان والمكان، فما يعد إفساداً في زمان أو مكان قد لا يعد إفساداً في زمان أو مكان آخر، وهذا يتوجه - بناءً على ما ذكره المفسرون - من أن الإفساد المنفي هو التجسس، فهو مما يقصده العدو على عدوه، فلا يكون عاراً، ولكنه اعتداء في نظر العدو.

وقد جاءت الجملة الثانية موصولة بما قبلها بالواو للتوسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى، وقد حسن الوصل لما بينهما من تناسب، بالإضافة إلى اتحاد المسند إليه في كل منهما.



المطلب الرابع

صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الضلال

جاء ذلك في مقام إثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم، وإثبات حقيقة الوحي المنزل إليه، وكذا إثبات عروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى السماوات العلاء، ليلة الإسراء والمعراج، وذلك في مطلع سورة النجم من قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ [النجم: ١ - ٣]، وقد جاء هذا الإثبات مؤكداً من خلال عدة مؤكدات.

وبرز المؤكد الأول في صيغة القسم المقسم فيه بالنجم، وإيثار القسم بالنجم "من البراعة البديعة وحسن الموقع مالا غاية وراءه، فالنجم شأنه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا؛ كأنه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابله إلى سواء السبيل"^(١)، فجاء القسم به في غاية المناسبة لنفي الضلالة والغواية عن النبي - صلى الله عليه وسلم.

وتقييد القسم بالنجم بوقت غروبه لإشعار غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجه في شرف الارتفاع في الأفق على أنه تسخير لقدرة الله تعالى^(٢)؛ ولذلك قال إبراهيم - عليه السلام: ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وجواب شرط "إذا" محذوف بدلالة قرينة السياق عليه، وأوثر في تعليق الشرط بالجزء "إذا" دون "إن" للدلالة على أن هوى النجم مقطوع بحصوله، سواء كان هوى النجم مقصوداً به الظهور أو البروز أو الصعود، كما كان مقصوداً به الأفول والسقوط والغروب.

(١) - تفسير أبي السعود: ٨ / ١٥٤.

(٢) - التحرير والتنوير: ٢٧ / ٩٠.

وبرز المؤكد الثاني في جملة جواب القسم "ما ضل صاحبكم" التي أوثر فيها "ما" - النافية دون غيرها من أدوات النفي - والداخلة على الفعل الماضي - خاصة - للمبالغة في تأكيد مضمون الكلام وتحققه.

وإنما ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - بلفظ الصحبة مضافاً إلى ضمير خطابهم، دون اسمه الصريح، أو دون صفة أخرى من صفاته، فيه تعريض بهم؛ لدلالته على فرط معرفتهم به، وقوة صلتهم به؛ فإن الصحبة تقتضي اللزوم وعدم انفكاك أحد الصاحبين عن الآخر.

فهذا إيذان بوقوف قرين على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبراً ببراءته - صلى الله عليه وسلم - مما نفي عنه بالكلية، وباتصافه - عليه الصلاة والسلام - بنهاية الهدى وغاية الرشاد؛ فإن طول صحبتهم له - صلى الله عليه وسلم - ومعابنتهم لمحاسن شؤونه العظيمة موجبة لذلك حتماً، فبناء الكلام على هذا النحو تأكيد لإقامة الحجة عليهم. (١)

والضلال أعم استعمالاً في الوضع من الغواية، تقول: ضلّ بعيري ورحلي، ولا تقول: غوي، فالمراد من الضلال: أن لا يجد المنطلق إلى هدفه وغايته طريقاً أصلاً، وأما الغواية فأن لا يجد له طريقاً إلى المقصد مستقيماً، ودليل هذا أننا نقول للمؤمن الذي ليس على الجادة: إنه سفيه غير رشيد، ولا نقول إنه ضال، فالضال كالكافر، والغاوي كالفاسق، فكان الله تعالى قال: ما ضل، أي: ما كفر، ولا أدنى من ذلك، فما فسق. (٢)

(١) - روح المعاني: ١٤ / ٤٦.

(٢) - مفاتيح الغيب = التفسير الكبير لفخر الدين الرازي: ٢٨ / ٢٣٤، دار إحياء التراث

العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.

وقيل إن الغي جهل يصاحبه اعتقاد فاسد، وهو خلاف الرشد، فيكون عطف الغي على الضلال من باب عطف الخاص على العام اعتناء بالاعتقاد واهتماماً به، وإشارة إلى أنه المدار.

ومن خلال العطف على جملة الجواب السابقة بجملتين أخريين منفيتين نفي الجواب للمبالغة في إثبات صدق نبوته - صلى الله عليه وسلم - وتقرير اهتدائه وعدم غوايته، فمحمد - صلى الله عليه وسلم - لا يتكلم بهواه وشهوته.

وقد استخدمت فيهما "ما" النافية - أيضاً - للمبالغة في التأكيد على انتفاء مضمون كل منهما، وأنه مما لا يكون بحال.

وآثر النظم الكريم في الجملة الأولى منهما الفعل الماضي من الغواية "غوى" للدلالة على انتفاء الوصف السابق جملة واحدة، وعلى وجه الرسوخ والثبات والدوام والاستقرار، بخلاف الوصف الثاني المنفي الذي جاء على صيغة المضارع "ينطق" لأنه لا يتأتى فيه المعنى السابق، فإنه يتجدد حالاً بعد حال ومرة بعد مرة، كلما تجددت موجبات النفي وتكررت دواعيه.

كما أن في المخالفة بين زمن الفعلين ما يشير إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكن له سابقة غواية وضلال مذ كان يافعاً مميزاً، وقبل تحنكه واستنبائه لم يعرف عنه نطق عن الهوى، فكيف وقد تحنك ونبىء، وفيه حث لهم على أن يشاهدوا منطقه الحكيم، وصراطه المستقيم.

والوصل بين الجمل للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية، وحسن الوصل بينهما اتفاق المسند إليه فيهما جميعاً.

وقد كان للسجع أثر بارز في تعميق النفي؛ لما يحدثه من تجاوب وتناغم من اللفظ يحدث به تسارع الإيقاع وتلاحقه على نحو يجذب الأسماع، ويستهوئ الأفتدة والقلوب.



المطلب الخامس

صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من التوديع

جاءت هذه الصورة في سياق الرد على المشركين وإبطال زعمهم أن رب محمد

- صلى الله عليه وسلم- قد قلاه، وذلك في مطلع سورة الضحى. يقول تعالى:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى]:

[٣-١]

والناظر في هذا الرد يشير اهتمامه أنه جاء مؤكداً بالقسم بالضحى والليل إذا

سجى، ومناسبة القسم أن الضحى وقت، فهو إشارة إلى تصوير نزول الوحي

وإثبات الاهتداء به، وأن الليل هو وقت قيام للنبي - صلى الله عليه وسلم- بالقرآن،

وهو الوقت نفسه الذي كان يسمع فيه المشركون المعاندون قراءته - صلى الله عليه

وسلم- من بيوتهم المجاورة لبيته أو من المسجد الحرام؛ ولذلك قيد الليل بهذا

الظرف "إذا سجى"، فلعل ذلك وقت قيام النبي - صلى الله عليه وسلم- يقول

تعالى: ﴿قُرْءُ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِصْفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [المزمل: ٢، ٣].

والضحى هو أشرف النهار والطفه، وأضوأه، وهو صدره، وهذا وقت ارتفاع

الشمس لأن المقسم لأجله أشرف الخلائق، فهذا القسم يشير إلى أنه يبلغ من

الشرف ما لا يبلغه أحد من الخلق.

ثم إنه لما ذكر النهار بأشرف ما فيه مناسبة لأجل المقسم لأجله، أتبعه الليل

مقيداً له بالظلام الخالص بكلمة "سجى" الجامعة للمعاني كلها التي تدل على

انقطاع الوحي وسكونه.

فالضحى يشير في هذا المقام إلى نور الوحي وإشراقه، والليل يشير إلى انقطاع الوحي وسكونه، والدنيا بلا وحي ظلام حالك؛ ولذلك قدم النظم الكريم الضحى هنا لأنه الأسبق من نور الوحي، وآخر الليل لما يمثل من انقطاع الوحي.

وأى دهشة في أن يجيء بعد أنس الوحي وسطوع نوره على النبي - صلى الله عليه وسلم -، مدة سكون للوحي، على نحو ما نرى من سجو الليل بعد تألق الضحى؟

وإنما أخرج هذا الرد مخرج القسم اعتباراً من وجه بمقام الضيق الذي ألم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - بسبب حزنه على انقطاع الوحي مدة من الزمن، وذلك في مقام تأنيسه - صلى الله عليه وسلم - أبلغ والتسرية عنه أدخل؛ لما يصقبه من السكينة والطمأنينة في قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - لدلالة القسم على شدة الاهتمام بالأمر، وأنه موضع عناية المقسم.

واعتباراً من وجه آخر بمقام الرد على زعم المشركين أن رب محمد - صلى الله عليه وسلم - قد قلاه؛ فإن حالهم في الجحود والإنكار لا تخفى على متأمل.

وقد جاء جواب القسم جملتين منفيتين بـ "ما" عطف إحداهما على الأخرى في قوله تعالى: "ما ودعك ربك وما قلى" للمبالغة في تثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وتسريته وتسكينه وتطمينه، والمبالغة في التأكيد على دحض مزاعم المشركين المفهومة من أسباب النزول؛ لقوة "ما" في النفي ووكادتها فيه؛ ولذلك يجاب بها القسم، كما سبق بيانه وتفصيله.

وزاد المقام تأنيساً والرد تأكيداً الفعل الماضي من التوديع المسند إلى عنوان الربوبية تشريفاً وتكريماً؛ لما يشتمل عليه عنوان الربوبية من الدلالة على الحفظ والرعاية والحوط والعناية.

ومن حذف متعلق الفعل من "القلبي"، وهو ضمير الخطاب العائد على النبي - صلى الله عليه وسلم - الواقع مفعولاً به، بدلالة ذكره في الجملة الأولى "ودعك"؛ وذلك رعاية لتحقيق التناسب والتوافق في فواصل الآية الكريمة، واحتراماً وتحاشياً عن إيقاع فعل الهجر على صريح الضمير العائد على النبي - صلى الله عليه وسلم. فحذف الكاف من قوله "وما قلبي"، مع دلالة السياق عليها، لكرامة مواجهة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه موضع قلبي من الله، ولو وقع ذلك في سياق النفي فإن الذوق البلاغي يقتضيه؛ لما في القلبي من حسّ الطرد والإبعاد وشدة البغض، وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك.

وفي عطف الفعل "قلبي" منفياً على الفعل "ودع" منفياً ليشمل الرد على مقولتهم في النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد جاء في أسباب النزول أن بعض هؤلاء الأفاكين قال: ودعه ربه، وزعم آخرون بأن ربه قد قلاه، على سبيل التهكم.



الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة والمسيرة الوارفة مع بحث عني بجانب من الجوانب البلاغية للقرآن الكريم، أحاول رصد بعض الحقائق الثابتة التي تمخضت عنها دراسة هذا الموضوع، وهي كثيرة ومتنوعة، ومثورة في ثنايا البحث، ومن أبرز هذه النتائج ما يأتي:

١- أتى أسلوب القسم متماسكاً، تمتد خلال سداه ولحمته خيوط التناسب، حتى يبدو محكم النسج، مما يجعل صورة معناه، والتي اكتسها أسلوب القسم، تقع في سمع المخاطب وروعه وقلبه، كالكل المجتمع، الذي تتداخل لبناته وتتماسك، وفي ذلك من التأثير والإمتاع والإقناع ما لا يخفى.

٢- تنوعت صور جواب القسم الذي دخلت فيه "ما" النافية، فجاء في صورة الاسمية، وفي صورة الفعلية، وهذا ما ترتب عليه تنوع في الإيحاء، وثراء في الدلالة.

٣- وقوع "ما" في صدر جملة جواب القسم يحقق نوعاً من تناغي الخصوصيات وتناغمها في بناء التركيب، خصوصية "ما" النافية، وخصوصية القسم، فكلاهما يضيف على المعنى تقريراً وتوكيداً.

٤- يتعانق مع "ما" النافية في توكيد الكلام وسائل وأدوات أخرى، كـ"اللام" الموطئة للقسم، و"قد"، والفعل الماضي، وغير ذلك؛ لأنها جاءت في مقامات حافلة بمعاني الإنكار والرفض، كمقامات الرد وإبطال مزاعم الآخرين.

٥- تكرار "ما" النافية في كثير من مواضعها في جواب القسم، وذلك عن طريق العطف المقتضي التشريك في الحكم، وهو ما يضيف على المعنى أبعاداً أخرى من الوكادة والتقرير والتثبيت والتمكين؛ لأنه توكيد للكلام على توكيد.

٦- في القسم جمع بين الأسلوبين الإنشائي بالقسم، والخبري بجوابه، وفي ذلك ما لا يخفى من التأثير في النفس الإنسانية في المقامات والسياقات التي اقتضت ذلك.

٧- غالبًا ما يكون الغرض من وقوع المسند أو المسند إليه بعد "ما" النافية في جواب القسم الاسمي هو إفادة معنى القصر والاختصاص.

٨- تنوع المقسم به مع صور وقوع "ما" النافية في جواب القسم، وهذا باعتبار تنوع المقسم عليه واعتبار ما له من أهمية.

٩- يقسم القرآن بالمحسوسات من الأمكنة والأزمنة والثمار والإنسان والحيوان على السمعيات والغيبات؛ لتدرج من المشاهد بالعيان إلى المدرك بالعقل، وفي ذلك ما فيه من التوكيد والتأثير والإقناع بوقوع الغيبات.

١٠- أكد التناسب بين القسم وجوابه على فكرة تماسك بنية النظم القرآني، ويتجلى ذلك التناسب والتماسك بالإدراك البلاغي.

١١- كثرة أساليب التأكيد كثرة لافتة، تبعًا لحاجة المعاني ومتطلبات المقام، مثل أسلوب الحصر، وتقديم ما حقه التأخير..

١٢- كان لحرف العطف الواو حضور قوي في الربط بين الأحداث، حيث حكمت سرعة الأحداث وتواليها.

١٣- كان الحوار هو الكاشف عن الأحداث والمصعد لها؛ ولذلك كان الاتصال بين الجمل - في أغلبه - قائمًا على اتصال ذاتي داخلي من خلال شبه كمال الاتصال.



ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.
- أسباب النزول للواحدي، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
- أسرار العربية لأبي البركات الأنباري، دار الأرقم بن أبي الأرقم- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الإله نبهان وآخرين، مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، (ثم صورته دار المعرفة- بيروت، وبتقديم الصفحات نفسها).
- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر- تونس، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.
- تفسير أبي السعود، المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د.ت).
- تفسير البيضاوي، المسمى: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" لأبي سعيد عبد الله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ.

- تفسير الطبري، المسمى: جامع البيان في تأويل القرآن لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة: عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين الخفاجي، دار صادر- بيروت، (د.ت).

- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، الطبعة السابعة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١٢م.

- دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة- دار المدني بجدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، للشيخ: خالد بن عبد الله الأزهرى، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

- شرح المفصل لابن يعيش، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

- الكتاب لسيويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.

- الكشاف لجار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.



- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.
- معاني النحو للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠ م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) لجلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب لابن هشام، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر- دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥ م.
- مفاتيح الغيب= التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.
- المقتضب للمبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عزيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٤ م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة، (د.ت).



فهرس الموضوعات

م	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٢٤٧
٢	التمهيد	٢٥٢
٣	"ما" النافية وعملها عند أهل اللغة	٢٥٢
٤	بين "ما" و "ليس"	٢٥٣
٥	فروق دقيقة بين الأداتين	٢٥٣
٦	اختصاص "ما" بوقوعها في جواب القسم	٢٥٥
٧	المبحث الأول: صور من دخول "ما" النافية على جواب القسم الاسمي	٢٥٦
٨	المطلب الأول: صور من الجواب الاسمي الذي تقدم فيه المسند إليه على المسند	٢٥٧
٩	المطلب الثاني: صور من الجواب الاسمي الذي تقدم فيه المسند على المسند إليه	٢٦٥
١٠	المبحث الثاني: صور من دخول "ما" النافية على جواب القسم الفعلي	٢٧٣
١١	المطلب الأول: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الكون	٢٧٤
١٢	المطلب الثاني: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من القول	٢٧٦
١٣	المطلب الثالث: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من المجيء	٢٧٨
١٤	المطلب الرابع: صور من دخول "ما" النافية على الفعل الماضي من الضلال	٢٨٢
١٥	المطلب الخامس: صور من دخول "ما" النافية على الفعل	٢٨٥

	الماضي من التوديع	
٢٨٨	الخاتمة	١٦
٢٩٠	ثبت المصادر والمراجع	١٧
٢٩٣	فهرس الموضوعات	١٨

ض

